البدو وبناء الأمبراطوريات
دراسة مقارنة للفتوحات العربية والمغولية (*)

ج. ج ساوندرز

تحفل ذاكرة التاريخ بما لا يحصى من غزوات بدو السهوب والصحارى على الممالك الحضَرية. في بعض الحالات تمكن الغزاة من الإطاحة بدولة منظمة، كما فعل الهكسوس في مصر أو الافثاليون في شمال الهند، والكين في شمال الصين؛ وفي حالات أخرى ردوا على أعقابهم، كما حدث للهونيين أيام الامبراطورية الرومانية، وللآفاريين مع بيزنطة.

تمكن بعضهم من التخلص من بربريته واكتسب فنون الحضارة، مثل الماغيار والأتراك العثمانيين، بينما بقي بعضهم الآخر رعاة أمين حتى النهاية، مثل السكيثيين والكومانيين. وقد أقام فريقان منهم امبراطورية عالمية نتيجة لفتوحات وصلت في مداها حدوداً لا تزال تلهب الخيال حتى اليوم. وهم عرب القرن السابع ومغول القرن الثالث عشر. إن إنجازاتهما المثيرة تطرح مشاكل تتناول العلاقة المتداخلة بين البداوة والمجتمعات المدينية، كما تتناول طبيعة الحوافز التي تفجر انطلاقة شعوب الرعاة إلى مغادرة أوطانها. ليس من أجل الغزو والكسب، إنما من أجل إقامة هيمنة سياسية على جيرانها المتحضرين.

(*) عن J.J. Saunders: Muslim and Mongols. Essays on Medieval Asia. 1977 وترجم المقال الأستاذ محمد السماك.

كذلك ترسم الفتوحات العربية والمغولية علامة استفهام حول أسباب تمكن الأولى من تعبيد الطريق لإقامة عالم ثقافي جديد مميز بينما فشلت الثانية في ذلك.

إن المؤرخين الذين يسعون للاجابة على هذه التساؤلات التي تفرضها دراسة الاستعمار البدوي يُواجهون منذ البدء بمقارنة توثيقية مذهلة.

في الحقيقة لم تصل إلينا وقائع معاصرة للفتوحات العربية. إن المدونات البيزنطية والعربية التي وضعت في أواخر القرن الثامن هي شاهدنا الأول على فتوحات القرن السابع، ولذلك فإننا لا نستطيع أبداً أن نستعيد مشاعر هذا التدفق من الصحارى العربية، أو أن نفهم كيف تعامل رجال ذلك الزمن معه، بحيث، وعلى سبيل المثال، إن رسائل سيرونيوس «أبوللو نيرايس» مكنتنا من أن نتبين وبصعوبة كيف أن الحياة في المقاطعة الرومانية «غالو» تأثرت بالغزو القوطي للغال (فرنسا اليوم). وعلى سبيل المقارنة فإن الهجمة المغولية على الحضارة جرت في ضوء التاريخ الساطع. إن الصينيين والفرس والفرنسيين والأرمن يخبروننا عما حدث ويكتبون ما شاهدوه وما سمعوه ففي ذلك الوقت كان التجار والمبشرون يطوفون في طول آسيا وعرضها. استجوبوا قادة المغول، وراقبوا عمل الآلة العسكرية الجبارة التي ابتدعها العبقري جنكيز خان. فمعلوماتنا في هذه الحال تقوم على ملاحظات رجال أذكياء ومثقفين من أجناس متعددة، من البيروقراطي الفارسي الجويني إلى الفلامنكي الفرنسيسكاني وليم أوف روبروك.

مع أخذنا في الاعتبار هذا الحذر، نستطيع أن نقارب مشكلتنا الأولى: ماذا أطلق هذه الانفجارات؟

يمكن أن نذكر أنفسنا أنه في العصور القديمة والوسيطة فإن أكثرية الجنس البشري لم تكن تنتمي إلى مجتمعات مقيمة. ولكنها كانت، كما ورد في الوصف اليوناني الروماني، مجموعات من البرابرة، القناصين والصيادين، أو الرعاة، تعيش في خيم أو في غابات، تحكمها عادات قبلية، لا تعرف شيئاً عن أراضي الدولة، غير قادرة على بناء المدن، ولا تملك أي أدب مكتوب. إن الحضارات (الصينية، الهندية، الفارسية، اليونانية، الرومانية) لم تكن سوى واحات في صحارى بربرية، كانت

تتعرض لتهديد دائم بالهجوم عليها من القبائل البدوية. ورغم أن هذه الشعوب البدائية كانت تتواجد على طول زنار السهوب الواسعة الممتدة من السودان إلى منغوليا فإن آسيا الوسطى كانت دائماً الحضن الأساسي للبداوة منذ أيام هيونغ نو ويوتشي قبل العهد المسيحي إلى أيام الأوزبك والكالموك في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

لقد عزلت وعورةُ الصحراء الشعوبَ السوداء في السودان عن الشريط الحضاري في شمال أفريقيا، كما عزلهم البرابرةُ المتوحشون الذين عاشوا في شمال الصحراء والذين كانوا يصلون أحياناً إلى الشاطىء، ولكنهم لم يجتازوا البحر أبداً ليهددوا أوروبا إلى أن حصل العرب على دعمهم في القرنين السابع والثامن وقادوهم إلى فتح إسبانيا وغزو فرنسا.

تدفق المد البدوي من الجزيرة العربية بقوة مرة واحدة فقط. كانت تتوالى منذ فجر التاريخ غزوات البدو على المدن ومراكز القوى في الشام والعراق. وأحياناً كانت القبيلة العربية تقيم مملكة نصف متحضرة على تخوم الصحراء كما فعل الأنباط في البتراء، أو التدمريون في تدمر، غير أن الفتح حدث مرة واحدة مع ظهور الإسلام قبل جيل مضى. كان تفسير هذا الأمر يعزى كلياً تقريباً إلى أسباب اقتصادية. وكان يقال إن تعاليم محمد ﷺ لم تكن إلا مناسبة وليست سبباً.

كان يقال إن عدد سكان الصحراء العربية في ازدياد، وإن التغير في المناخ الصحراوي وسع الصحراء على حساب الحَضَر مما أدى بالتالي إلى تقهقر المجتمع الزراعي في اليمن (ويرمز إلى هذا التقهقر بالانفجار الشهير لسد مأرب في القرن السادس) وإن البداوة اتسعت، وإن النقص في الطعام والمراعي حمل البدو على اتباع سياسة التوسع عسكرياً نحو الشمال.

إن المدافعين عن هذه النظرية يقولون إنه حتى لو لم يكن هناك الإسلام، فإن الفتح العربي كان لا بد أن يحدث. ودعماً للاعتقاد بأن الدين الجديد كان قليل التأثير أو لم يكن له تأثير على الاطلاق، يشيرون إلى أن رجال البدو كانوا متحررين ولم تكن لهم معتقدات دينية قوية، وإن الفاتحين لم يبذلوا أي جهد لفرض الدين الجديد على الشعوب المغلوبة.

إن هذه الاحتمالات لم تعد تحمل الاقناع الذي حملته قبل خمسين عاماً. لقد وفر الإسلام حافزاً وحجة تجميعية وحقق وحدة لم تكن موجودة بين العرب من قبل. ومع أنه لا يمكن إنكار الحوافز الاقتصادية، فإنه من غير المعقول أن يبذل كل ذلك الجهد الطويل من دون دافع ديني. إن الإسلام معتقد بسيط تعلق به البدو بحكم مصالحهم أكثر مما تعلقوا به بحكم الإيمان الصحيح، غير أن قيادة الفتوحات وتنظيماتها قام بها مدنيون أمثال أبو بكر وعمر وكانا مؤمنين مخلصين واعتقدا بصدق أن الله منح أمتهما السلطة على العالم.

حتى لو قبلنا النظرية التي تعزو الهجوم على الأراضي البيزنطية والفارسية بأنها نتيجة مباشرة للردة، فإن وجود الإسلام ضروري لتفسير ما حدث. إن كثيراً من القبائل التي اعترفت بمحمد (عليه السلام) في حياته ناصبت جماعته العداء بعد وفاته، على أساس أن خضوعها له كان على أساس شخصي بالكامل، وإن هذا الخضوع لا يربطها بالولاء لخلفائه. هذا التراجع عن الإسلام الذي يعرف بالردة، قاومه قادة «المدينة» وتمكنوا من إخماد التمرد بشيء من الصعوبة. أدرك أبو بكر وعمر أن أفضل طريقة للمحافظة على ولاء البدو هو التوجه إلى غريزتهم الحربية وتجييشهم في مشروع قضية مشتركة وهو الفتح الخارجي.

وهكذا اتخذ قرار شن الحملات العسكرية ضد العراق والشام، وهو قرار كان يعني أن الإسلام لن يبقى محصوراً داخل شبه الجزيرة العربية.

من المشكوك فيه أن تكون هذه هي الحقيقة كاملة، ولكن على أي حال لا يمكن استبعاد العامل الديني من هذا النقاش؛ كان لصيحة «الجنة أمامكم والشيطان وجهنم وراءكم» قيمة معنوية ودعائية: لم تتقدم جيوش عربية على هذا النحو من قبل. وعندما أصبح عثمان خليفة في العام ٦٤٤ عمل على جمع القرآن، ذلك لأن كثيراً من حفظة الكتاب المقدس قتلوا في المعارك. وبدا أن هناك خطراً في أن يضيع النص بكامله. ألم يكن ذلك بالتأكيد دليلاً على الحوافز الدينية؟

لا شك في أن النجاح المذهل للفاتحين العرب يعود في جانب منه إلى ضعف وإلى انقسام الدول المتمدنة التي كانت هدفهم الرئيسي. لقد تقاتل البيزنطيون

والفرس في حرب غير حاسمة، استمرت خمسة وعشرين عاماً. أنهكت المتاعب المملكة الساسانية فانهارت، على غرار روسيا في العام ١٩١٧. قامت الامبراطورية المسيحية على قواعد أقوى، وحدها هرقل، ولكن الصراعات الدينية ضربتها، فالأقباط والسريان وأصحاب نظرية الطبيعة الواحدة في المسيح لم يكونوا على استعداد حتى آخر رجل منهم للقتال من أجل أسيادهم الروم الارثوذكس الذين نكلوا بكنائسهم. ولكن مقابل ذلك لا بد من إقرار الحقيقة وهي أنه لم يكن العرب متفوقين في التقنية الحربية ولم تكن عندهم تقاليد في التنظيم العسكري. صحيح أن جِمالهم وفرت لديهم ليونة في الحركة ولكنهم لم يحملوا معهم «أسلحة سرية» ضد خصومهم. في الواقع كانوا أضعف في كل شيء حتى في الأسلحة الصغيرة، ولم تكن لديهم أدوات للحصار لإسقاط المعاقل القوية. لا تتوفر لدينا معلومات مدققة عن حجم جيوشهم ولكن من غير المعقول أن تزيد على حجم القوات التي كان باستطاعة الامبراطور البيزنطي والشاه الساساني أن يدفعا بها إلى ساحة القتال.

مع ذلك فإن ما يدعو للدهشة أكثر، ليس النجاح الفوري للعرب ولكن تواصل التقدم المظفر الذي نقلهم شرقاً عبر دجلة وجيحون ونهر السند، وغرباً إلى كل الشواطىء الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط. لقد تغلبوا على كل المقاومة الشرسة التي أبدتها ليس فقط قوات الأمم المتحضرة، ولكن قوات بدوية مثلهم كالبربر والأتراك. وحتى عندما نشبت صراعات داخلية وحروب أهلية داخل العرب، دعاة الإسلام الأول استمر التقدم على خطوط الجبهة الخارجية. لا بد أن يكون هناك دافع داخلي شديد القوة كان يحثهم ويدفعهم إلى الأمام، إن هذا الدافع لا يمكن أن يوفره سوى الإسلام نفسه.

لذلك يمكننا المجازفة في تكوين مبدأ يقول إن الغزو البدوي يبلغ حده الأقصى عندما يحركه ولو جزئياً حافز ديني قوي.

كيف يمكن أن يطبق هذا إذن على المغول؟

في البداية إن الإيمان الديني المحرض الذي ألهب القيادة العربية، إن لم نقل

القاعدة العربية أيضاً، يبدو غير موجود عند المغول. كان محمد رسولاً. أما جنكيز فلم يكن أكثر من محارب. ولكن إذا دققنا أكثر، نجد أن هناك دليلاً واضحاً على وجود حافز ديني قوي وراء الفتوحات المغولية أيضاً. إن الديانة القديمة في السهوب الآسيوية تختلف في أمر خاص وهام عن الديانة في الصحارى العربية، فالشعوب التركية ـ المغولية، رغم أنها تشارك البدو في عبادة الطبيعة فقد طورت اعتقاداً بأن قدرها بقيادة (تنغري ـ إله السماء) هو أن تقود العالم. ومنذ عام ٥٨٤ وصف خان تركي نفسه في رسالة وجهها إلى امبراطور الصين إنه «مولود من السماء وإنه ابن امبراطورية الترك السماوية العظيمة».

وبعد جيل أعلن خليفة له كما ورد في حفريات أورخون الشهيرة: «عندما خلقت السماء الزرقاء في الأعالي، والأرض السوداء في الأسفل، خلق الانسان بين المنزلتين، ويتولى أسلافي حكم أبناء الرجال».

لا شك في أن هذه العالمية السياسية ـ الدينية تدين بقدر ما إلى نفوذ الصين التي كان امبراطورها أيضاً ابناً للسماء يحكم بالنيابة. إن الخان هو الممثل الإلهي لتنغري، وإن التفوق العسكري على القبائل المجاورة وعلى الصين ولد بسهولة الأمل بأن السيطرة على العالم، وهو قدرهم الثابت، سوف يتحقق بسرعة بواسطة القبيلة المنتصرة أو بواسطة اتحاد القبائل.

صمدت هذه المعتقدات والتصورات حتى بعد تحول بعض الشعوب التركية المغولية إلى الإسلام، أو إلى المسيحية النسطورية، أو إلى البوذية. لقد بقي هؤلاء على نقاوتهم وعلى قوتهم حتى أنه في أيام جنكيز خان تمسكوا بالشامانية(*)، ولم يتأثروا بالاحتكاك مع الديانات الأرقى. إن الانتصارات الباهرة التي حققها جنكيز أقنعته وأقنعت شعبه بأن السيطرة على العالم حق لهم وأن السماء قضت بذلك. إن مهمتهم هي بوضوح تحقيق السلام والعدل في العالم؛ وهذا يعني أن مقاومتهم

(*) الشامانية دين بدائي أسيوي ـ أوروبي يؤمن بوجود عالم آخر من الشياطين وأرواح السلف والآلهة معاً. والاتصال بهذا العالم لا يكون إلا عن طريق كاهن متخصص ـ الشامان ـ الذي يحترف السحر طقساً دينياً (المترجم).

تعني مقاومة السماء، وبالتالي يجب معاقبة المقاومين على هذا الأساس ومن المستحيل الشك في أن هذا الاعتقاد الثابت كان مصدراً لقوة معنوية قوية عند المغول. فما أن أبدى جنكيز قدرته على الانتصار حتى اعتبر المغول أن يومهم قد أتى وأن لا أحد يستطيع أن يقف في وجههم.

لم يكتب جنكيز خان ما أمكن أن يتحول إلى كتابٍ مقدَّس ولكنه وضع «الياسا» وهو نظام قانوني أعلنه عندما تولى مقاليد السلطة العليا في العام ١٢٠٦، ومنذ ذلك الوقت عومل من رعاياه على أنه يتحدر من أصل إلهي. من الصعب تقييم الياسا تقييماً عادلاً ذلك أنه لا توجد نسخة كاملة عنه، وما وصلنا لا يعدو كونه مجرد نتف صغيرة. إن تدبيراته تتراوح بين التسامح باستعلاء تجاه كل المعتقدات، حتى تفاصيل تنظيمات الجيش وفرض عقوبة الموت على السارق والزاني وعلى التاجر المفلس. وتنعكس بعض المعتقدات البدائية الخرافية في أمور مثل الحظر على التبويل في المياه أو في الرماد، وغسل الملابس في مياه الجداول الجارية. لقد وضعت أنظمة الياسا كما يفترض لتستجيب إلى حاجات امبراطورية متوسعة، ومن أجل فرض قانون قبلي وليس فقط من أجل تطبيق عادات قبلية، ومن أجل جمع عدة أمم تنضوي الآن تحت راية المغول.

عيّن «جغتاي» ابن جنكيز قيماً على الياسا. واحتفظ بنسخ عنها في خزائن أمراء المغول، وكان كل خان يبدأ عهده بتأكيد صدقيتها. تشكلت أساطير حولها. فالمؤرخ الأرمني غريغوري يخبرنا أن ملاكاً على هيئة نسر ذي ريش ذهبي تراءى لجنكيز وتلا عليه الياسا وحثه على حكم دول عدة مما يذكرنا بتلاوة جبريل للقرآن على النبي محمد. وكما أن «الحديث» أو أعمال النبي تتكامل مع القرآن، كذلك فإن الياسا تكاملت مع «البيليك». وهذه عبارة عن أقوال جنكيز التي يعرب فيها عن آرائه أو يقدم فيها النصائح، أو يقص حكايات عن حياته.

بالطبع كان جنكيز بالنسبة لشعبه أكثر من مجرد عسكري عبقري وقائد متميز. كان ناطقاً بلسان السماء ومنفذاً للارادة الإلٰهية، وربما كان إلٰهاً خالداً أيضاً ذلك أن التعلق به تأصل في منغوليا ولا يزال مستمراً حتى يومنا هذا. حتى أن الشيوعيين وجدوا أنفسهم مضطرين لبناء مزار خاص يضم آثاره. لقد طبقت

شهرة الياسا الآفاق حتى أن مماليك مصر الذين كانوا ألدّ أعداء المغول، تبنوها أساساً للعُرف فيما بينهم. ويتجلى هذا الاستعمار الديني في أوضح صوره من خلال أوامر الاخضاع التي وجهها الخانات العظام إلى ملوك أوروبا. إن هذه الوثائق المدهشة تبدأ عادة هكذا: «نحن، بقوة من السماء الخالدة (مونجكي تنغري) الخان المعظم لأمة المغول المعظمة، نأمر..» وفي رسالة وجهها «غويوك» في عام ١٢٤٦ إلى البابا اينوسنت الرابع أجابه فيها على شكواه بأن المغول هاجموا الأمم المسيحية وارتكبوا المذابح الوحشية دون أي استفزاز، قال غويوك: «أنا لا أفهم ما تقول، إن السماء الخالدة هي التي ذبحت وقضت على هذه الشعوب والأراضي لأنها لم تخضع لجنكيز خان أو إلى الكاغان، اللذين بعثا ليعرّفا بأمر الإله». وحذر مونجكي باستعلاء لويس التاسع في عام ١٢٥٤ من أنه لا يوجد سوى سماء خالدة واحدة، وإنه لا يوجد على الأرض سوى سيد واحد، هو جنكيز خان ابن الإله. وقال: عندما يصبح العالم كله من شروق الشمس حتى مغربها عالماً واحداً يعمه الفرح والسلام، بقوة الإله، عند ذلك سوف يتضح ما ننوي القيام به. فإذا فهمت مشيئة الإله الخالد ورفضت الإيمان بها بأن تقول «إن بلادنا بعيدة، وجبالنا عالية وبحارنا شاسعة، وبهذا الاعتقاد تجيش الجيوش ضدنا، فإننا نعرف ماذا نستطيع أن نفعل بك. إن الإله الخالد يعرف من استسهل الصعوبات وقرب البعيد».

إن الاعتقاد بأن السماء المقدسة تقاتل من أجلهم وإن لديهم مهمة توحيد البشر وتحقيق السلام والأمن في العالم، كان أحد أقوى الدوافع التي حثت المغول على فتح العالم.

نستطيع الآن أن نتحول إلى نقطة ثانية. إن الفاتحين البدو لم يقيموا أبداً نظاماً سياسياً قابلاً للاستمرار ما لم يكونوا على اتصال من قبل مع مجتمعات متحضرة، وما لم يكونوا على درجة من الذكاء بالحفاظ على الجهاز الإداري التقليدي في الأراضي التي يحتلونها.

لم يكن العرب ولا المغول متوحشين يعيشون في مناطق منعزلة وبعيدة.

تعرضت الجزيرة العربية إلى تأثيرات خارجية منذ أيام الآشوريين: ففي اليمن نعمت ممالك سبأ (سبأ وبعد ذلك حمير) ومعين وقتبان وغيرها، بدرجة عالية من الازدهار، بفضل الخصوبة الطبيعية للمنطقة، وبسبب موقعها على مفترق الطرق الرئيسية للتجارة الدولية في ذلك الوقت. كذلك كان يتاخمها شمالاً مملكة غسان التي قامت تحت حماية البيزنطيين ومملكة الحيرة التي قامت تحت حماية الفرس، ومن خلالهما تسرب بعض الثقافة اليونانية والفارسية إلى الواحات الداخلية. وقامت مجتمعات يهودية ومسيحية في معظم المراكز الرئيسية للحياة العربية. لم ينمُ الإسلام في الصحراء، ولكنه نما في المدن، كان رجال مكة والمدينة تجاراً ورجال أعمال. كانوا يعرفون قيمة التوثيق والإدارة الجيدة. كان عمر الخليفة الثاني، مسؤولاً بصورة أساسية خلال سنوات حكمه (٦٣٤ ـ ٦٤٤) عن إقامة القواعد التي اعتمدت لحكم سوريا والعراق ومصر: لقد شجع مسؤولي النظام القديم على البقاء بمناصبهم، وقدم الضمانات للأهالي للاحتفاظ بأراضيهم وبيوتهم ومحلاتهم وأعمالهم واحترام عاداتهم وتقاليدهم القديمة، ومنع البدو العرب من السيطرة على الأرض خارج الجزيرة العربية. التسامح الديني الكامل شمل اليهود وكل المذاهب المسيحية. الأوامر الحكومية كانت تطبع باللغات المحلية، ولم تصبح اللغة العربية لغة الخلافة الرسمية إلا بعد خمسين سنة في عهد عبد الملك (٦٨٥ ـ ٧٠٥). وهكذا ما أن توقف القتال حتى قامت الأمبراطورية العربية بحد أدنى من اضطرابات، وتعلم الفاتحون (الذين لم يكن قادتهم أميين) من رعاياهم فنون الإدارة المتحضرة.

الحقيقة أن المغول كانوا أكثر بعداً من العرب عن مراكز الحضارة. فموطنهم يقع في موقع ناء من حوض أوتون الأعلى، لم تكن لديهم مدن تضاهي مكة أو المدينة أو مأرب، ولم يكن لديهم أدب مكتوب أو حتى شعر شفوي غني كالشعر العربي الذي أنتجته الجزيرة العربية في القرن السادس. من علامات عبقرية جنكيز أنه أدرك الفقر الثقافي عند أمته والحاجة للاعتماد بشكل أساسي على جيرانه الأكثر رقياً فمجتمع السهوب لم يكن مجتمعاً واحداً. بعض القبائل كانت عبارة عن صيادين بدائيين. بعضها كان بدواً رعاة، وبعضها الآخر جمع بين تربية

الماشية والزراعة غير المروية، وقليل منها عاش في حياة نصف تجارية في مدن صغيرة تحيطها جدران من الطين.

كان الأويغوريون أكثر تقدماً. وهم شعوب تركية اللسان عاشت مرة في قره قوروم في منغوليا ثم أُجبرت على الهجرة إلى بلاد «الألتاي» حيث أصبح موقع البيش باليك (المدن الخمس) في ما يعتقد أنه وادي شو مركز قوتهم. هنا، بالقرب من طريق الحرير الشهير، تعرضوا إلى المؤثرات الفارسية والهندية كما تعرفوا إلى مبشري الديانات المانشية والبوذية والنسطورية واعتنق بعضهم هذه الديانات. ووسط النشاطات التجارية في المنطقة اضطروا إلى تعلم الكتابة ووضعوا لأنفسهم ألف باء مستمدة على ما يبدو من الصغدية. وسرعان ما أصبحت اللغة الأويغورية واسعة الانتشار في السهوب، حتى أن جنكيز جعلَها لغته.

عهد إلى مسؤول من الأويغوريين وهو تاتافونغا مسؤولية وضع جهاز حكومي امبراطوري. كما عهد إليه التشاور مع عدد من أمراء المغول الشباب حول شؤون التدوين، وطبع قوانين الخان باللغة المغولية الجديدة. كان جنكيز يبحث عن الموهوبين أنى وجدهم. كان بعيداً عن التعصب العنصري. وقد نهج خلفاؤه على طريقه بتعيين جنرالات وإداريين ومسؤولين ومستشارين من كل الدول التي أخضعها السلاح المغولي. كان شوتساي سليل أسرة كيتان من شمال الصين التي أطاح بها المغول واحداً من أحسن ضربات الحظ التي وفق إليها. لقد وضعه جنكيز في خدمته وتمكن هذا الموظف المدني العبقري من أن يقنع جنكيز بعدم القضاء على سكان الأرياف في الصين، وأن يحول البلاد إلى مراعي. لقد أوضح هذا المدجَّن لسادته أن الحرب والغلبة لن تكون لهما أية قيمة، إذا لم تدر الأراضي المحتلة بشكل جيد وفعال، وإن فرض الضرائب المنتظمة هو أفضل من السلب دون تمييز. هذا الدرس ردده أمام خليفة جنكيز، أوغيداي قائلاً له: «لقد قامت الامبراطورية على صهوة حصان، ولكن لا يمكن أن تحكم من على صهوة حصان».

مع ذلك ربما كان الخانات أقل نجاحاً من الخلفاء في إقامة إدارة مدنية فعالة لإدارة شؤون الامبراطورية، لأنهم كانوا بالتأكيد نتاج خلفية مجتمع بربري

متخلف فالخلفاء لم يكونوا شيوخاً بدواً، ولكنهم كانوا مدنيين يتحدرون من الارستقراطية التجارية في مكة. كان الخانات قبائل بدوية عاشوا وسط أجواء حرية سهوب لا حدود لها وكانت المدينة تعني لهم سجناً. وبالفعل فإن المجازر التي ارتكبها المغول استهدفت المدن الواحدة بعد الأخرى (لقد أخبرنا أن القتل في نيسابور في عام ١٢٢١ لم يقتصر على الرجال والنساء والأطفال ولكنه استهدف أيضاً القطط والكلاب في الشوارع) في عمليات إبادة لم يكن لها مثيل في الفتوحات العربية. وربما تعزى هذه العمليات إلى إرهاب خصومهم بدم بارد ولحملهم على الاستسلام، ولكنها تعزى أيضاً إلى الخوف من الحضارة المدنية وكراهيتها.

فهم لم يدركوا إلا بعد مدة الحاجة إلى عاصمة ثابتة وإلى إدارة مركزية من أجل توسعهم الامبراطوري السريع. ولقد اختاروا من أجل ذلك المستوطنة القديمة في قره قوروم، وهي شبه مدينة أدهشت مبانيها البدائية المصنوعة من الطين والجبس المبعوثين والزوار الذين وفدوا إليها من الدول المتمدنة. وقد وصفها بازدراء وليم أوف روبروك الفرنسيسكاني بأنها أحط من سانت دنيس في ضاحية باريس.

تواصلت الفتوحات المغولية على مرحلتين. أسفرت المرحلة الأولى عن توحيد السهوب الآسيوية - الأوروبية من منشوريا حتى هنغاريا (كان ذلك سهلاً نسبياً وأمكن تحقيقه قبل ذلك عن طريق الأتراك في القرن السادس). أما المرحلة الثانية فأسفرت عن إخضاع دول مستقرة قديمة مثل الصين وفارس.

أدار المرحلة الأولى جهاز مدني بدائي من الموظفين والمدراء من الأويغوريين وغيرهم من الشعوب التركية - المغولية التي لم تكن شعوباً أمية بالكامل. أما إدارة وحكومة المرحلة الثانية فقد تطلبت بيروقراطية عالية الثقافة مع خبرة لم يكن المغول يملكونها أو يفهمونها. وقد وجد الخانات أنفسهم وسط مأزق مؤلم. لقد كرهوا سكان المدن وبقوا بعيدين عنهم خوفاً من أن تضيع صفات الرجولة والعسكرية عندهم في خضم بذخ المدن وثرائها. ولكن كيف يمكن أن تحكم هذه الأراضي وأن تفرض عليها الضرائب من دون إعادة المسؤولية إلى أيدي الطبقة الحاكمة السابقة؟ لقد وجد حل جزئي عن طريق توظيف الغرباء. حتى أن قوبيلاي خان

الذي كان معجباً بالثقافة الصينية كان حذراً من استبعاد المندرينية(**) من معظم مكاتب الدولة. وكان يدير الصين في عهده مسلمون من الأراضي العربية والفارسية، ومسيحيون نسطوريون من الأعراق ذات اللسان التركي، وأوروبيون مثل البولنديين. لم يكن سهلاً الاستغناء في فارس عن موظفين من أهل البلاد. وقد قام أعضاء عائلات بيروقراطية مثل الجويني ورشيد الدين فضل الله بخدمة الخان. وحتى هنا حصل مسيحيون غير إيرانيين، ويهود وبوذيون على مناصب وزارية عالية كلما كان ذلك ممكناً.

تبعاً لذلك بقي المغول غرباء في هذه الأراضي، بقوا أعداء فاتحين مكروهين، بقوا جيش احتلال، فلم يغرسوا أي جذور ولم يكسبوا أي ولاء. ومن الجدير ذكره أن حكمهم كان أقصر عمراً في الدول المتحضرة مما كان عليه في السهوب. لقد اختفت الخانية من إيران في العام ١٣٣٥ أي بعد ثمانين عاماً فقط من غزوة هولاكو في العام ١٢٥٥. وتَمَّ إخراج المغول من الصين على يد انتفاضة المينغ الوطنية في العام ١٣٦٨، أي بعد مرور تسعين عاماً فقط على تدمير قوبيلاي لسلالة سونغ في العام ١٢٧٩. غير أن القبيلة الذهبية التي حكمت سهوب جنوب روسيا من مقرها في الفولغا السفلى استمرت حتى عام ١٤٨٠، كما أن ذرية ابن جنكيز، جغتاي واصلت حكمها على ما يعرف الآن بتركستان حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر. إن الأسئلة التي تفرض نفسها هنا هي: لماذا كان انهيار الامبراطورية المغولية أسرع بكثير من انهيار الخلافة؟ ولماذا لم تؤدِ فتوحات جنكيز وخلفاؤه إلى قيام حضارة مغولية كبيرة مماثلة للحضارة العربية الرائعة التي قامت بعد قرن تقريباً من انتشار الإسلام؟

تماثل نشوء القوة المغولية من وجوه عدة مع نشوء القوة العربية: ففي الحالتين ساعد الفاتحَ ضعفُ العدو وانقسامه. إن انحلال الامبراطورية الساسانية له مثيله في انحلال الامبراطورية الخوارزمية. والصراع المرير بين الملكانيين

(**) المندرينية هي اللغة التي كانت سائدة في شمال الصين والتي صارت لغة البلاط وأهل الدولة وبذلك أصبحت لغة معظم الأمة الصينية (المترجم).

وأصحاب المشيئة الواحدة في العالم البيزنطي له مثيله في الصراع العنيف بين السنة والشيعة في الاسلام، والمواجهة العنيفة بين السلطان محمد والخليفة الناصر مع بداية الغزو المغولي.

إن الفوضى السياسية التي وضعت روسيا بيد المغول تماثل الاضطرابات والعجز اللذين مكنا العرب من اجتياح المملكة القوطية في إسبانيا في معركة واحدة. والحرب الاستنزافية الطويلة بين بيزنطة وفارس يمكن أن تماثل التفتت الذي لحق بالصين وقسمها بين «الكين» و«السونغ» مما مكن المغول من أن يلعبوا ورقة أحدهما ضد الآخر وفي النهاية تمكنوا من تدمير كليهما. ولكن المقارنة تنتهي هنا. لقد واصلت الامبراطورية العربية صعودها لمدة مائتي عام، على الأقل حتى موت هارون الرشيد في العام ٨٠٩. أما المغول فقد سقطوا في أقل من قرن. وكان قوبيلاي آخر الخانات العظام، الخامس في هذه السلسلة.

من السهل تفسير ذلك بأنه يعود إلى شفافية وعدم تماسك المملكة المغولية وإلى انقسام العائلة الحاكمة حول اختيار «مونكه» أو مانغو ليكون الخان الأكبر في العام ١٢٥١ . مثلما حلت أسرة العباسيين محل الأمويين في ثورة ٧٥٠، غير أن القضية أعمق من ذلك. إنها تعود إلى الصعوبة التي تواجهها طبقة بدوية حاكمة عديمة الخبرة وعديمة الثقافة في بسط سلطتها السياسية على مجتمعات راقية. إن جذور المسألة تعود إلى الجاذبية التي لا تقاوم التي تبثها الحضارات على البدو الذين يخيمون في وسطها. يضاف إلى ذلك أنه لم يكن لدى المغول ديانة «أعلى» ذات رسالة عالمية، بينما كان ذلك موجوداً عند رعاياهم.

إن الحضارات الكبيرة التي نشأت في وادي «وانغهو» وفي وادي يانغ تسي، وفي الهضبة الإيرانية، بثت إشعاعات من التأثير سرعان ما انتشرت في سهوب آسيا الوسطى على طول الطرق التجارية الممتدة إلى الشمال وإلى الجنوب من حوض «تاريم». كذلك تغلغلت الثقافة الصينية بشكل مخفف، وتسلل أحياناً النفوذ السياسي الصيني غرباً حتى «كاشغر» و«يارقاند»: وامتدت التأثيرات الفارسية إلى ما وراء «جيحون وسيحون». وخضعت المناطق التي تعرف الآن بتركستان ولعدة قرون لاحتلال شعوب فارسية اللسان. وعندما دخل الأتراك التاريخ في القرن

السادس عشر وتحركوا غرباً بسرعة حتى شبه جزيرة القرم، سرعان ما اختبروا التأثيرات المضادة للصين وإيران، والانقسام بين «الأتراك الشرقيين» و«الأتراك الغربيين» الذي قضى على قوة ووحدة امبراطوريتهم. يعكس هذا، الانقسام الثقافي، كما يعكس الانقسام الماثل بين المغول. خلافاً لما فعله الأتراك الأوائل الذين اقتصر حكمهم على السهوب، فإن المغول أخضعوا بالكامل الصين وفارس، وكانوا بالتالي عرضة للمؤثرات الخاصة بهاتين الحضارتين. كان «قوبيلاي» آخر خانات المغول العظام، أول امبراطور مغولي على الصين، وهو الذي اتخذ الخطوة الحاسمة بالتخلي عن قره قوروم في منغوليا وبنقل مركز الامبراطورية إلى «خان باليك» (بكين اليوم). أما شقيقه ومنافسه «اريك ـ بوغا» الذي تصرف من حيث يريد أو لا يريد كممثل للتقاليد المنغولية المحافظة فقد أعلن نفسه خاناً أكبر في «قره قوروم». إن هزيمته على يد «قوبيلاي» في العام ١٢٦٤، يمثل انتصار «المتمدنين» على «البرابرة». أما «قوبيلاي» وجماعته فرغم ثقتهم بطبقة المثقفين الصينيين ومراقبتهم الأمنية الدقيقة، فقد تأثروا شيئاً فشيئاً بالسلوك وبالعادات وبالأفكار وبالفن وبالعقائد الصينية حتى بدوا أسرى هذه الثقافة.

في الغرب استسلمت فارس للفاتحين المغول كما فعلت مع العرب. قضي على حكم الخانات كما قضي على حكم الخلفاء العرب بشكل مماثل للقضاء على حكم الشاهات الساسانيين. غير أن المغول ـ المتأثرين بالصينيين، والآخرين المتأثرين بالإيرانيين، دخلوا في تقاليد ثقافتين مختلفتين تماماً، وتباعدوا روحياً أكثر فأكثر. وبعد ذلك، انقسمت القيادة المغولية نفسها حول هذا السلوك الغريب، فقد اعتبرها المحافظون منهم خيانةً للماضي الوطني وتنكراً له.

مع ذلك وقع شيء مماثل مع العرب الذين دخلوا الإرث الثقافي اليوناني والفارسي، وحولوا هذا الإرث إلى حضارة أضاءت الحياة الثقافية والفنية من خلال اللغة العربية. لم يحدث شيء من ذلك مع المغول الذين وجدوا أنفسهم متورطين في صراع مصيري حول روح آسيا مع ثلاثة أديان عالمية كبيرة هي البوذية والمسيحية والإسلام. كانت القيادة المغولية غير ملتزمة منذ البدء بأي من هذه

الأديان. وخلافاً للعرب، لم يكن عند المغول رسول أو كتاب مقدس، ولم يكن عندهم اعتقاد ثابت بمعرفة الحقيقة الكاملة. كانت القيادة المغولية تتأرجح بين هذا الاتجاه أو ذاك. وكان عليها أن تتمسك بقضايا لم يكن على العرب مواجهتها أبداً.

لم يصمد المغول أمام القوة الدينية المندفعة خلفهم، ذلك أن إلحادهم البدائي كان محكوماً عليه بالزوال من خلال الاتصال بعقائد «أعلى» لم يعرفوا عنها قبل فتوحات جنكيز إلا القليل. بل لعلهم لم يعرفوا شيئاً على الاطلاق. كانت البوذية الديانة الأوسع انتشاراً في الصين وفي شرق آسيا. فقد تحول إليها عدد كبير من قبائل «الأويغور» التركية، ولم تكن هذه الديانة مجهولة في شرق فارس. ساد الإسلام لدى معظم الشعوب التركية الغربية حتى «كاشغر» شرقاً، وحتى بلغار الفولغا الوسطى شمالاً، ولكنه لم يتسلل إلى منغوليا. امتدت المسيحية في شكلها النسطوري إلى قلب آسيا ووصلت شرقاً حتى منشوريا، ورغم أنها أقصيت عن الصين في العام ٨٤٥، فقد تحولت إليها قبائل الكيريت و«التيامن» و«الاونغست» التي كانت تعيش في الجنوب الغربي من منغوليا، كما سيطرت على جزء من «الأويغور» وكانت قواعدها في فارس والعراق على درجة عالية من التنظيم.

منذ عام ١٢٤٠ تضافرت جهود البعثات المسيحية اللاتينية مع النسطورية، وقد ترك بعضهم أمثال جون كاربيني ووليم أوف روبروك وفريار أودوريك وصفاً قيماً جداً لرحلاتهم وللأوضاع التي كانت سائدة في البلاط المغولي. لقد أثار فضول المغول تزايد معرفتهم عن هذه المعتقدات المنافسة، حتى أن جنكيز نفسه سعى وراء الحكمة عن طريق الراهب شانغ شون الواسع الشهرة الذي رافق الحملة الغربية الكبرى ١٢١٩ ـ ١٢٢٤ وكان يُخاطبه بقوله: «أيها الرجل القديس.. يا من جئت من مكان بعيد، هل عندك دواء للخلود»؟ كان «شنكاي» النسطوري مستشاراً سرياً لجنكيز ولخليفتيه «أوجداي» و«غويوك». كان «مونكه» الذي استقبل وليم روبروك وغيره من المبعوثين الغربيين مولعاً بالاستماع إلى المناقشات الدينية. وأشار مرة إلى أن الاختلاف بين هذه العقائد هو كالاختلاف بين أصابع اليد من حيث إنها تنطلق أساساً من قاعدة واحدة. كانت قره قورم في تلك الأيام مليئة بالرهبان البوذيين والمسيحيين وغيرهم من الذين كانوا يتطلعون إلى ربط هذه

الامبراطورية المتحللة دينياً بعقيدتهم الخاصة. ارتفعت الآمال المسيحية بعض الوقت. فقد تزاوجت العائلة المغولية الحاكمة مع قبيلة مسيحية تركية. وكان لـ«تولي» زوجة نسطورية. وكانت زوجة هولاكو وأمه مسيحيتين. كما كانت أم «منكه» وأم «قوبيلاي» مسيحيتين أيضاً. ويذكر أن «غويوك» قد عمّد، وأن «سارتاك» ابن باتو فاتح روسيا كان فعلاً مسيحياً. وكان هولاكو شديد العداء للإسلام. وقد أرهب الإسلام باجتياح بغداد وقتل آخر الخلفاء في العام ١٢٥٨. حاول خانات فارس التحالف مع الصليبيين ومع القوى الغربية ضد المسلمين واعدين بمساعدة الغرب على استرجاع القدس وملوحين باحتمال اعتناق المسيحية. ولو فعلوا ذلك لكان تاريخ العالم قد تغير. غير أن المغول في الشرق تحولوا في النهاية إلى البوذية، وتحول المغول في الغرب إلى الإسلام. وعانت المسيحية من هزيمة ساحقة وتلاشت من آسيا.

ليس من المتعذر معرفة أسباب هذه القرارات. عندما تمت الفتوحات كان على الخانات الاحتفاظ بها، وكانت أفضل وسيلة لذلك اعتناق عقائد وتقاليد رعاياهم. لم يكونوا شعبيين ولذلك كان من الجنون أن يكونوا ضد الإسلام في فارس أو ضد البوذية في الصين. ومع التزام «قوبيلاي» بسياسة التسامح المغولية مع سائر المعتقدات، فقد أبدى تعاطفاً أكثر فأكثر مع البوذيين. ويخبرنا ماركوبولو (أو راموسيو) أنه عندما حمله ضغط أُمِّه على اعتناق المسيحية قال إنه لا يستطيع أن يغامر بتحدّي نبلاء جيشه ودولته أو غيرهم من الشعوب غير المتعلقة بعقيدة المسيح.

اعتنق «غازان» الحفيد الأصغر لهولاكو الإسلام في العام ١٢٩٥، وأتبع ذلك بإجراءات قاسية ضد المسيحيين واليهود والبوذيين. لم تكن هناك دولة مسيحية متحضرة في آسيا وهكذا وجد المغول أنفسهم مضطرين لحصر اختيارهم في البوذية والإسلام. الأولى في الصين والثاني في إيران، ومن خلال ذلك سرعوا في تخريب ملكهم.

وهكذا تبنى المغول في الشرق والغرب ثقافات جاهزة ولم يخلقوا شيئاً ذاتياً وكما يلاحظ بوشكين: «لا يوجد أي جامع مشترك بين التتار والمسلمين. فهم إذا

كانوا فتحوا روسيا فإنهم لم يعطونا لا علم الجبر ولا أرسطو!»

في البداية بدا وكأن هناك إشارات عن تطور أدب مغولي وطني محترم. «فالتاريخ السري» حول الأمة المغولية الذي أعد في حوالي العام ١٢٥٠ أو بعد ذلك، هو عبارة عن ملحمة عنيفة تجمع بين الحقيقة والأسطورة. غير أنها بقيت ظاهرة منعزلة فيما أصبحت العربية لغة عالمية نبيلة للعلوم والفلسفة، وللأدب معاً. أما اللغة المغولية فلم تخرج أبداً من الظل لتكون أكثر من أداة لنشر القصص الفولكلورية.

ثمة سبب واضح لهذا الفارق وهو أن العربية منذ جمع القرآن أصبحت بالنسبة للملايين من الناس لغة مقدسة، اللغة الوحيدة التي اختارها الله لإعلان رسالته الأخيرة إلى الإنسانية، كانت تقرأ أو تحفظ في كل مكان انتشر فيه الإسلام. فتحت حكم الخلفاء أصبحت القبطية واليونانية والسريانية والبهلوية لغات أقليات صغيرة، وتبوأت العربية مكانة رفيعة لا يمكن تحديها، كما لا يمكن استبدالها طالما استمر الإسلام وطالما استمرت العربية لغة المسلمين الفضلى. ولكن لم يكن هناك قرآن مغولي أو «انجيل» أو «جيتا» أو «أفستا» ولم تكن هناك حتى «الياسا» لكي تتم ترجمتها إلى لغات رعايا الخانات العظام.

لم يكن المغول يفتقدون فقط إلى ديانة جذابة، ولكن لغتهم أيضاً كانت بعيدة عن شعوب عديدة. وقد أحصي (نعترف أنه إحصاء غير دقيق تماماً) عدد سكان منغوليا في أيام جنكيز، فلم يزد على مليون أو نحو ذلك. ويخبرنا رشيد الدين أنه عندما مات الفاتح في عام ١٢٢٧ كان عدد الجيش المغولي يصل إلى ١٢٩ ألف رجل. إن هذه الأرقام ليست مرتفعة، وهي تشير ليس فقط إلى النقص الكبير في القوة المغولية العاملة الذي فرضته الفتوحات، ولكنها تشير أيضاً إلى الكيفية التي ذابوا فيها بحكم المعادلة التي ابتدعوها هم أنفسهم.

لم يكن التوسع المغولي الامبريالي هجرة شعوب تسعى وراء أراضٍ خصبة تقيم فيها، ولكنه كان صدوعاً لأمر جنكيز بالاستيلاء على امبراطورية السهوب. وقد حدث ذلك في وقت مناسب جداً. إن الآلة العسكرية الرائعة التي بناها

واصلت عملها بصورة آلية حتى بعد وفاته.

لقد احتاج الخلفاء إلى عدة عقود من الزمن ليطوعوا البربر والخراسانيين والأتراك في الجيوش العربية، بينما كان جنكيز مستعداً لتجنيد قبائل الكيرايت، والنايمن والاويغور والألان، والتنغوت، وغيرهم من القبائل غير المغولية في قواته. ولم يكن يحتاج المرء أن يكون مغولي المولد حتى يصل إلى القيادة العليا. وفي النهاية كان جيش الخانات تركياً في تكوينه أكثر منه مغولياً. كما لم يرافق الفتوحات استيطان مغولي واسع النطاق.

كان المغول قليلي العدد بحيث لم يتمكنوا من فرض لغتهم على امبراطوريتهم، وهي ليست اليوم أكثر انتشاراً مما كانت عليه أيام جنكيز. يمكن ملاحظة آثار ضئيلة للمغولية في فارس أو روسيا أو أي منطقة أخرى دانت للخانات الكبار. وحتى في عز عظمتهم كانت الفارسية وليس المغولية اللغة الأكثر تداولاً في الأوساط الحكومية. فقد كانت واسعة الانتشار في أنحاء من آسيا حتى أنها مارست دور صلة الوصل بين الصين والغرب.

لاحظ «بارتولد» أن سياسة التوفيق بين أمرين متناقضين ـ الحياة البدوية والحياة الثقافية المدينية ـ كانت النقطة الأضعف في نظام جنكيز خان كما كانت السبب الرئيسي لسقوطه.

في حال العرب، وضع القادة المدنيون العامل البدوي تحت مراقبة معقولة (فبعد الفتوحات أعيد تجميع الجنود البدو في مخيمات ـ مدينية مثل البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان). إن الدين الإسلامي الجديد لم يقدم فقط قوة دفع قوية، ولكنه قدم أيضاً لغة مقدسة في عيون المؤمنين، فانتشر العنصر العربي وانتشرت اللغة العربية في منطقة شاسعة من خراسان حتى اسبانيا، وبدأت الحضارات القديمة الفارسية واليونانية ـ الرومانية تمارس تأثيرها على المجتمع الإسلامي عبر النساطرة وغيرهم من المسيحيين السريان. حصّن الإسلام وهو عربي صاف في أصوله، الفاتحين العرب ضد معتقدات رعاياهم الأرفع حضارة منهم. كان المغول في موقع مختلف تماماً. بنى قائدهم وهو عبقري في الحرب، امبراطورية ضخمة

ولكنه كان مع ذلك مجرد قائد قبلي على مجموعة من البدو. إن ديانة السهوب (الإيمان بالسماء - الإلهة) كانت حافزاً قوياً وراء الفتح، ومع ذلك لم يكن لدى المغول رسول أو قرآن. كانوا بالتالي تحت رحمة «الديانات الأعلى»، وكأمة صغيرة سرعان ما أصبحوا أقلية في امبراطوريتهم. لم يقيموا مستوطنات دائمة خارج مواطنهم الأصلية، وبعد قرن أو نحو ذلك تراجعوا إلى مراعيهم الوطنية. إن كل ما تملكوه لا يمكن أن يشكل نواة لبناء حضارة جديدة. لم يكن هناك شيء كالإسلام لتوفير النكهة الخاصة أو اللغة المميزة لثقافة أعلى. إن النساطرة الذين ساعدوا على تثقيف العرب كانوا أقل تجهيزاً لتثقيف المغول. ذلك أنهم هم أنفسهم عانوا من تراجع ثقافي وأصبحوا مبعثرين وأشد عزلة، وفصلوا عن المصادر الأساسية لحياتهم الثقافية.

تبدو المقارنة أوضح من خلال دراسة حال فارس التي فتحها كل من العرب والمغول. حوّل الفتح العربي كل الحياة والمعتقدات الإيرانية، وحدث انفصام كامل عن الماضي الساساني والزرادشتي، وبدأت الأمة تاريخاً جديداً. خبت لغتها القديمة. وعندما تم احياؤها ثانية كانت عابقة بالكلمات العربية التي لم تتمكن حتى الوطنية المعاصرة من التخلص منها كلياً. أما الفتح المغولي فقد زمجر فوق فارس كالإعصار، ولكن عندما مرّ الإعصار تبين أنه لم يترك على مميزات الأمة سوى تغيير ضئيل. لقد تقبل الفرس الدين العربي، أما المغول فهم الذين تقبلوا الدين الفارسي. حافظت الثقافة على استمراريتها رغم الأضرار الفادحة التي لحقت بها، ولم تنأ اللغة الفارسية عن كل تأثير مغولي فقط ولكنها أصبحت في الواقع وبشكل عملي اللغة الرسمية في الامبراطورية المغولية.

في ضوء هذه الاعتبارات يمكن استنتاج ما يأتي:

١ - إن البداوة الخالصة لا تستطيع أبداً أن تحفظ امبراطورية.

٢ - إن نجاح الاستعمار البدوي يحتاج إلى عقيدة. أي إن على القيادة أن تُمارس سلطتها من خلال ما هو أكثر من مجرد رغبات قائد بدوي يتطلع إلى السطو والنهب، عليها أن تمتلك هدفاً ما غير مادي. كان لدى كل من الأتراك والمغول

الأوائل «فكرة» السيطرة على العالم، وكان عندهم «نموذج» للسلام والعدل في العالم تحت حكمهم.

٣ ـ حتى تصبح القيادة البدوية قادرة على بناء امبراطورية تميزها عن القرصنة، يتحتم عليها أن تكون على اتصال مسبق بشعوب ذات ثقافة «أعلى»، وأن تكون مدركة ولو بشكل غير واضح مشاكل الإدارة المدنية إدراكها لمشاكل الفتح العسكري. وأن تكون قادرة على جذب عناصر مثقفة من خارج صفوفها لإدارة الأراضي المحتلة.

٤ ـ إن فتح مجتمعات مقيمة بواسطة البدو يؤدي غالباً إلى ذوبان البدو في هذه المجتمعات وبالتالي خسارتهم للغتهم ولهويتهم الوطنيتين. يعود ذلك إلى قلة عدد الفاتحين، وإلى قوة الجذب التي تمارسها مجتمعات راقية على مجتمعات جاهلة. لقد اندثرت لغة «الهون» بالكامل. وتكلم البلغار اللغة السلافية، بعد عدة أجيال من اجتيازهم الدانوب في العام ٦٧٩، وتم تتريك مغول «القبيلة الذهبية» بسرعة رغم سيطرتهم على شعوب تركية. وإذا حاول القادة منع الذوبان باتباع سياسة التمييز بما في ذلك منع الزواج بين المواطنين، فإن الفاتحين يبقون مجرد جيش احتلال، ويتم التخلص منهم في النهاية تاركين وراءهم أثراً لا يذكر، لقد انسحب المغول من الصين كما انسحب القوط من إيطاليا.

٥ ـ إن الديانة البدوية هي عادة ديانة بدائية ذات تنظيم متخلف لا تملك أدباً مكتوباً مقدساً. ولذلك تفقد القدرة على جذب شعوب أكثر تقدماً. بالمقابل فإن البدو غالباً ما يتأثرون بالهيكلية التنظيمية للديانات الأعلى (المعابد ـ الكهنوت ـ الكتب المقدسة)، والفاتحون البرابرة يعتنقون عادة عقائد رعاياهم. وهكذا اعتنق الألمان والفايكنغ والماغيار المسيحية الأوروبية، واعتنق مغول الشرق البوذية، ومغول الغرب الإسلام.

٦ ـ لا بد للسلطة البدوية القوية من أن تقوم، كما لاحظ ابن خلدون على قاعدة دين «أعلى» يعلم البدو الوحدة والانضباط. فمن بين كل الفاتحين البدو، وحدهم العرب امتلكوا هذا الشيء. كان عندهم رسول وكتاب مقدس «قبل» أن

يقوموا بفتـوحاتهم. دخلوا أراضي جـيرانهم المتحضرين عن يقين تـام بتفوقهم الروحي، ولم ينسوا أبداً أن العربية ـ اللغة التي خاطب الله بها الإنسان ـ كانت أسمى من كل اللغات اليونانية والفارسية والهندية. لم يكن لدى المغول مثل هذه الأفضلية. لم يتعرض العرب لإغراءات اعتناق ديانات كانوا يعرفـون أنها مجرد صور مشوهة عن ديانتهم، وحيثما حلوا كانت تـرافقهم لغة القـرآن المقدسـة. وهكذا كان بالإمكان بناء حضارة عربية وليس حضارة مغولية.